الجزء ٨ آب سنة ١٩٢١ م الموافق ٢٥ ذي القعدة سنة ١٣٣٩ هـ المجلد ١

بماذا يكون انتظام المجتمع الانساني

القيت من قبل حضرة الاستاذ صاحب الامضاء في جو المجمع العلمي في ٨ تموز سنة ٩٢١ .

ايها السادة الكرام والاخوة الاعزاء والابناء البررة !

قيض لي حسن الحظ ان اقف هذا الموقف بينكم مذكراً لا مرشداً اذ فيكم من رئيس المجمع الفاضل وزملائي الافاضل من لا استغني عن الاقتباس من انوارعلمه فاضرع الى آدابكم ومكارمكم ان تسبلوا ذيل الصفح عما سترونه من هفوات دعا اليها تشعب مسائل الموضوع الذي توخيته (وما تشعب تصعب) واستدعاؤه بحثاً اكثر ووقتاً أوسع والله اسأل وبنبيه الاكرم صلى الله عليه وسلم اتوسل ان يأخذ بيدنا جميعاً لانهاض هذا الوطن من كبوته وما ذلك على الله بعزيز ان صدقت النيات واتحدت القلوب وعرفنا الحق لاهله ووضعنا كل شيء في محله .

ان الله تعالى خلق الخلق محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون متفرداً بالغنى مختصاً بالقدرة وجعل الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان لان من الحيوان مايستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه واستعانته به صفة قائمة في جوهره قال تعالى (وخُلق الانسان ضعيفاً) يعني عن الصبر عما هو مفتقر اليه واحتمال ما هو عنه عاجز .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولما كان الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان لاحتياجه الى اشياء استغنى عنها غيره وهي الملبس والمسكن اللذان استغنى عنهما اكثر الحيونات ان لم نقل كلها والمطعم الذي لا يتناوله الانسان الا بعد اجهاد عدة صناع فيه انفسهم ومزاولة عدة صناعات، قيل الانسان مدني بالطبع اي انه لا يقوم بحاجياته بنفسه بل يحتاج الى مدينة اي مجتمع تتوفر فيه حاجياته وقد جعله الله تعالى بهذه الصفة نعمة منه عليه ولطفاً به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز ما تعينَّن لهمن طغيان الغنى وبغي القدرة لان الطغيان مركوز في طبعه اذا استغنى والبغي مستول عليه اذا قدر قال تعالى (ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى) وقال عنه (انه كان ظلوماً جهولا) (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض) .

ثم جل وعلا جعل لنيل الانسان حاجته اسباباً ولدفع عجزه حيلة دله عليها بما وهبه من نعمة العقل وارشده اليها بالفطنة وانعم الله على الناس بما اودعه في الارض من الخيرات حيث قال خلق لكم ما في الارض جميعاً فوجب ان يكون سكانها على حالة رضية من الانصاف وحسن العشرة والمودة والمعاونة واسداء المعروف واحتمال الاذى فانهم ان لم يكونوا كذلك ضاع ما أودعوه من تلك الخيرات او اختص به بعضهم دون الآخر فضاع العدل والانصاف وفقدت الالفة والانتظام وهما زينة المجتمع الانساني .

ولم تزل قلة الانصاف قاطعة   بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم

ثم اودع فيهم غرائز التزموا بطبعهم المحافظة عليها مثل الغيرة والاباء وحب الاثرة وهي مراكب جامحة ان لم تلجم وتروض فشرع عز وجل الشرائع على لسان رسله الكرام لمحافظة هذا المجتمع من الفساد والاختلال فكانت زبدة ما امرت به من اساسيات الانتظام المحافظة على خمسة اشياء واصلاحها وهي (١) الدين (٢) النفوس (٣) العقول (٤) الانساب (٥) الاموال. فافساد الدين بالكفر والبدع والاهواء المضلة. وافساد النفوس بالقتل او قطع او تعطيل بعض الاعضاء او منافعها. وافساد العقول بشرب المسكرات او تضليل الغير على ارتكاب ما يمس دينه او شرفه . وافساد الانساب بالاقدام على الزنا فانه يضيعها. او بعقوق الوالدين وقطع الارحام فانها يضيعان ثمرتها من التناصر والتواد . وافساد الاموال بالغصب والسرقة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والرشوة وكذا اخذها بالغش واصناف الحيل وكل وجه غير مشروع . ويدخل في ذلك اغتصاب المنفعة كانواع السخرة وعدم تأدية الاجير اجره فان المنفعة متقومة.

ومن قارن بين قول التوراة (انا الرب الهك الذي أخرجك من أرض مصر لا يكن لك آلهة أخرى أمامي لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الارض من تحت وما في الماء مما تحت الارض لا تسجد لهن ولا تعبدهن لا تنطق باسم الرب الهك باطلاً اكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الارض لا تقتل لا تزن لا تسرق لا تشهد شهادة زور لا تشته بيت قريبك الخ). وبين قوله تعالى في القرآن (قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ان لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن واوفوا الكيل والميزان بالقسط واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

علم ان أساس الاديان في تنظيم الهيئة الاجتماعية واحد بدليل قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فكما علم ان للهيئة الاجتماعية حقوقاً ونظاماً ينبغي أن يعلم ان لكل فرد منها كذلك حقوقاً ونظاماً ولنبين ذلك اجمالاً لأن تفصيله يحتاج الى مجلدات اذ هو زبدة الشرائع والمقصود بالذات منها اما صلاح المجتمع وانتظامه بأسره فلدى الاستقراء وجد في ستة أشياء (١) دين متبع (٢) سلطان قاهر (٣) عدل شامل (٤) أمن عام (٥) خصب دائم (٦) أمل فسيح.

أولها الدين الحقيقي لانه يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب عن ارادتها حتى يصير زاجراً للضمائر رقيباً على النفوس . وهذه الصفات لا يتوصل اليها بغير الدين ولا تعيش أمة عزيزة كريمة بغير آداب ولا فضائل ولا يمكن أن تبنى الفضائل على غير قواعد الدين فالدين هو مقلل الشرور وأقوى روابط الاجتماع التي قيل انها الدين واللغة والوطن والنسب وأنا أزيد عليها المشاكلة في الطباع فلا يصحب الانسان إلا شبيهه وان لم يكونا من قبيل ولا بلد لكن تلك الروابط لا تنتظم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بدونه وهو أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها وأجدى الأمور نفعاً في انتظامها وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه منذ فطرهم عقلاء من تكليف شرعي واعتقاد ديني ينقادون لحكمه حتى لا تختلف بهم الآراء وتتصرف بهم الأهواء ومن هنا قيل وهو الصحيح ان الحسن ما حسنته الشرائع والقبيح ما قبحته خلافاً لمن حكم العقل في التحسين والتقبيح .

نعم ان العقول قد تقضي بأشياء حسنة غير أنها لا تهتدي لمعرفة الحسن حقيقة بدون شريعة الا مصادفة والغالب ان ما يأتي به من عندها لا يجمع عليه نظراً لتفاوت العقول واعجاب كل امرىء برأيه فقد روى التاريخ أن شون أحد ملوك الصين الذي كان في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وضع لأمته خمس قواعد تتضمن الواجبات المتعينة على كل من الآباء والابناء والملك والرعايا والشيوخ والشبان والزوج والزوجة والصديق وصديقه ولم يبين لنا التاريخ تفصيل ذلك وكيفما كان الحال فلا بد أن يكون في بعضها مخالفة للشرائع فان من المعمول به عندهم للآن انه اذا مات أحد الزوجين ألحق به الآخر حرقاً حتى لا يفترقا . ثم وجد في تلك الامة كونفوشيوس الحكيم سنة ١٧٦٦ قبل الميلاد فجعل النواميس الاساسية ثلاثة وقال انها التي تقوم عليها الصلات بين الحاكم والرعية والاب والابن والرجل والمرأة وقال ان الفضائل الاصلية خمس وهي محبة الانسان لأبناء جنسه بدون تمييز بينهم والعدل أي اعطاء كل ذي حق حقه بلا تفضيل لأحد على آخر والمحافظة على العادات التي رسخت والاديان التي أمرنا بها حتى لا تكون للأمة إلا حالة معاشية واحدة يستوي الناس في التمتع بحسناتها ويتشاطرون سيئاتها ونكدها والاستقامة وفسرها بطلب الحقيقة بلا تضليل ولا خداع والصدق وفسره بالاستقامة في السلوك والخطاب اهـ .

فأنت ترى ان حكمه بأن تكون للامة حالة معايشية واحدة مع خروجه عن دائرة الامكان مخالف لكل الشرائع فان اختلاف المعيشة أمر لا بد منه بمقتضى نظام الكون إذ هو من أدل الدلائل على قدرة الخالق الحكيم وقد ورد في القرآن (نحن قسمنا بينهم معيشتهم وفضل بعضكم على بعض في الرزق) ولم تزل تعاليم هذا الحكيم الى الآن حية بين قومه وعليها مدار نظامات الصين ولا بد لكل طالب علم عندهم ان يستظهرها لينال في الامتحان الشهادة التي تخوله حق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الدخول في الوظائف فيا حبذا لو نقتدي بهم الآن في جعل الاخلاق علماً وعملاً من شروط نيل الوظائف . ثم انظروا حفظكم الله الى شرائع مانو الهندي الذي يعتقد فيه الهنود انه الاب العام للبشر وهي منظومة في ٥٣٧٠ بيتاً من الشعر تنقسم الى ١٢ باباً تحتوي على عدة أشياء منها المبادىء التي يجب أن يجري عليها الفرد والاسرة والمدينة وواجبات الامراء وأهل كل من الطبقات المختلفة والنظام المدني والعسكري ولخص ذلك كله بقاعدتين احداهما تقضي على الامة بخضوع طبقاتها بعضها لبعض وثانيتهما تقضي على الفرد بالطهارة الحسية والمعنوية ، وجعل الامة أربع طبقات الكهان والعسكر والفلاحون مع التجار والمحترفون مع الاسرى والمغلوبين وجعل السيادة للطبقات الثلاث الاولى فيحظر عليها مصاهرة الطبقة الرابعة ثم وجد في القرن السادس قبل الميلاد رجل يدعى ساكيموني ويلقب ببوذا فنقض هذا الاساس وجاهر بأن الناس أمام الشرائع الادبية متساوون وان الفضيلة ما يفعله الانسان من خير لا ما يقوم به من الشعائر الدينية وان كل امرىء من أي طبقة كانت يحصل بتقواه وفضله على النجاة وان للانسان مكملات ستاً وهي العلم وقوة العزيمة على مقاومة الشهوات والطهارة وحب الناس والصبر والبر اهـ . فانظروا كيف خالف هذا من قبله لتفاوت عقل الرجلين أما الشرع فلكونه وضعاً إلهياً يكون نظامه مطرداً مقبولاً والدليل أيضاً على ما قدمناه ما كان عليه الفلاسفة الاقدمون الذين زعموا ان الرياضة توصل الى درجة النبوة وان النبوة مكتسبة من الاخلاق السافلة التي ينفر منها الطبع السليم فان منهم طائفة تسمى الكلبية رئيسها انتشيونس ثم تلميذه ديوجانس كانت ترى حب أقاربها واخوانها وبغض غيرهم من سائر الناس وترى التغوط في الطرقات بلا ستار فلقبهم النـــاس بالكلبيين لان خلقهم خلق الكلاب . ومن آراء ديوجانس انه إذا احتاج الانسان الى شيء وأخذه فلا تثريب عليه وكان يرى ان الحياء من ضعف النفس ولذا كان لا يستحي من فعل قبيح الاشياء أمام الناس .

هذه الامم الثلاث الصين والهند واليونان العريقة في الوجود وهذه قوانينها التي لم تستند الى شرع سماوي ولو أردنا تعداد آراء الفلاسفة الذين لم يأخذوا العلم والمدنية من طريق الدين لضاق بنا المجال ويكفي ان منهم الدهريين الذين لم تهدم عقولهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى معرفة الصانع ووجوده فجحدوه والطبيعيين الذين بحثوا عن أفعال الطبائع وانفعالاتها وما صدر عن تفاعلها من المواليد الثلاثة الحيوان والنبات والجماد فحصل من هذا ان العقل وحده غير كاف في الوصول الى معرفة الحسن والقبيح بل لابد له من دين يعدل سيره . اما كيفية تعليم الدين الصحيح الذي لبابه الاخلاق الفاضلة فهي عقدة العقد وبها صلح ماصلح وفسد مافسد اذ هي الاساس لما نحن بصدده فان كثيراً ممن تصدى لذلك افسد اكثر مما اصلح وذلك لسببين اولهما انه ادخل في الدين ماليس منه مما لايثبت على محك الانتقاد من خرافات لايقبلها العقل ولا يؤيدها صحيح النقل فكانت في دماغ مبتدعها ذرة صغيرة ولما انتقلت الى فضاء أرض المتعلم الساذج باضت وفرخت وهكذا يزداد نتاجها كلما زرعت في محل فيه قابلية لنمو الترهات ثم انه موه على العامة بتخشع كاذب وورع مصنوع حتى اعتقدت حجية قوله وهيهات من أوتي سحر هاروت وماروت ان يزيل ماعلق باذهانهم من خزعبلاته وهنا يجب أن نبين بقليل من الايضاح فساد حال من هذه حاله ، ان من ظن الزهد التمنع عن اكل المشتهى اللذيذ الحلال فقد تنطع لان الله تعالى خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) والطيبات هي الحلال . واصرح من ذلك قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق) فمن فعل ذلك معتقداً انه من الدين فقد ضل واضل وبعضهم يلبس لباساً زرياً تقشفاً ويتخشع في مشيته تصنعاً مع ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يمشي كمن ينحط من صبب (اي علو) ورأت عائشة رجلا متصفاً بهذه الصفة فقالت : ماهذا؟ استهجاناً لحالته فقيل لها هذا زاهد فقالت سبحان الله أهو أزهد من عمر وكان اذا مشي اسرع واذا ضرب اوجع .

والسبب الثاني عدم تمكنه في العلم فيتصدى للتعليم الذي يحتاجه هو ويتزيا بزي من تزويق لباسه واتقان هندامه ظناً منه ان العلم عبارة عن ذلك ولم يعلم ان العلم الناقص شر من الجهل التام لانه يدعو صاحبه الى ان يفتي بغير علم حذراً من ان يقال عنه انه جاهل وربما حابى الامراء او الاغنياء فافتاهم بما يشتهون مما لا يعرفه الدين اذ لم يكن عالماً حقاً حتى يردعه علمه عن زخرف القول ومنكره وهناك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهناك سبب آخر وهو عدم العمل بمقتضيات الدين فالعمل في المعلم من موجبات تأثير العلم في المتعلم وقد قيل الواعظ من يعظ بفعله لا بقوله فمتى انتفت هذه الاسباب حصلت ثمرة التعليم وهي الاخلاق الفاضلة وتتأصل في النفس فتكون زاجراً قوياً لها عن ارتكاب ما لا يليق وهذا الزاجر هو المراد بقول من قال :

لا ترجع الانفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

وانما كان التلقين بهذه المثابة من الاهمية لانه الاكسير الذي تنقلب به الاعيان وتتحول به الاحوال لان الافعال دائماً آثار الافكار والافكار دائماً آثار الكلام فالكلام الواصل الى النفوس ان كان خيراً كانت الافكار خيراً فكانت الافعال خيراً وبالعكس ، فالكلام هو الاصل في الاشياء ومبدؤها وهو الذي يأخذ القلوب يمناً وشمالا . واني لاعجب ممن قال ان الاخلاق لا تتغير والواقع يدل على خلافه لاننا نشاهد الحيوان الوحشي يخرج عن طبعه بالتهذيب فهذا البازي يصير طوع الانسان يأمره فيأتمر وينهاه فينتهي وهكذا الفرس الجموح او الحرون تتبدل صفاتها بالمعالجة ولولا ان ذلك حاصل لما ارسل الله الرسل بالشرائع فيها الامر بالحسن والنهي عن القبيح وترتيب الثواب والعقاب على الاخلاق حسناً وقبحاً .

وياحبذا لو اعتنى اولو الامر بمنع دجالي هذه الصنعة اشد من اهتمامهم بمنع الطرقية من دجالي الطب فالضرر هنا اشد لان طبيب الاجسام الجاهل وربما ساعدته المصادفة على شفاء من يطببه اما طبيب العقول فلا شبهة في انه يودي بحياة مريضه الادبية ويوصله الى شقاء دائم في الآخرة .

والثاني من الستة التي بها صلاح المجتمع الانساني سلطان اي ذو سلطة قاهر تتألف من خوفه الاهواء المختلفة وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة وتتكف بسطوته الايدي المتغالبة وتمتنع من خوفه النفوس العادية لان في طباع الناس من حب المغالبة على ما احبوه والقهر لمن عاندوه ما لا ينفكون عنه الا بمانع قوي ورادع ذي سطوة وهو الذي يحمي الدين والعلم ويدعو بسطوته الى اتباعهما ولذلك قيل ما نزع السلطان اكثر مما نزع القرآن وقال تعالى (لانتم اشد رهبة في صدورهم من الله) فهو القائم على صون الاخلاق ان تفسد والمحافظ على صلاحها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والثالث من الستة عدل شامل يدعو الى الالفة ويبعث على الطاعة وتنمو به الاموال ويكثر به النسل ويعم به الامن المالك والمملوك فقد قال الهرمزان لعمر ابن الخطاب لما رآه نائماً في المسجد بلا غطاء ولا وطاء فضلا عن الحرس والحجاب: عدلت فأمنت فنمت. وامهات العدل ثلاث عدل الرئيس مع من في حوزته ويكون بعدم اعنائهم وترك التسلط عليهم بالقوة وعدل الانسان مع من فوقه كالرعية مع حاكمها والمرؤوس مع رئيسه وهو يكون باخلاص الطاعة وبذل النصرة وصدق الولاء وعدل الانسان مع اكفائه ويكون بترك الاستطالة عليهم ومجانبة الادلال وكف الاذى فهذه الامور ان لم تكن في الاكفاء تقاطعوا تقاطع الاعداء ففسدوا وافسدوا والعدل لازم للانسان ايضاً في نفسه بان يحافظ على صحته بعدم تعاطي ما يضعفها ويعمل صالحاً حتى لا يكون معذبا في الآخرة ومن حملها شيئاً من الجرائم فقد ظلمها اذ سبب لها العذاب في الآخرة وفي عائلته بان يقوم لها بما كلفنه به الشرائع من سد حاجاتها وان يسوي بين افرادها في المعاملة ، الا ترون قول النبي ﷺ (ان الله يأمركم ان تعدلوا بين اولادكم حتى في القبل) بل العدل لازم في كل اسباب المعيشة التي هي الصناعة والزراعة والتجارة والامارة الذي منه الرفق بالحيوان الاعجم ولو اردنا بيان كيفية العدل فيها لما اتسع له الوقت واجمع شيء في تعريف العدل هو ان ينصف الناس من نفسه فلا يفعل معهم الا ما يجب ان يفعلوا معه ومن العدل ايضاً معرفة الحق لاهله فان دعوى كل انسان ما ليس فيه يفسد نظام المجتمع اعظم فساد ومن تعاطى صنعة لا يتقنها او تقلد وظيفة لا يحسن القيام بها او لم يعرف لذي الفضل فضله ولم يحله في المنزلة التي يستحقها واخذ في انتقاصه او ادعى انه احق بشيء من صاحبه كان جاهلا او حاسداً او غاشا وكلها من دواعي الفساد . وفي الحديث (اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة) قيل وكيف اضاعتها قال بتوسيد الامر الى غير اهله وسأل رجل علي بن ابي طالب رضي الله عنه لم انتقضت الامة عليك ولم تنتقض على ابي بكر وعمر فقال له لما كنت انا من رعيتهم انتظم الامر ولما صرت انت وامثالك من رعيتي صار الامر الى ما تقول اي ان علياً ومن كان معه زمن امارة الخليفتين كانوا يعرفون حق العمرين امارعية علي فكان فيهم من لم يعترف له بالحق فلهذا انتقض امر الامة ووقع ذلك البلاء العظيم . ويتعلق بالعدل ايضاً امور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خاصة يكون العدل فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسرف لان العدل مأخوذ من الاعتدال فما جاوزه فهو خروج عن العدل وذلك كما في الفضائل فانها هيئات بين خلقين ناقصتين وافعال الخير توسط بين رذيلتين كالشجاعة فانها بين التهور والجبن والحلم بين افراط الغضب وعدمه كما وضع ذلك علماء تربية النفس بما ليس هذا موضعه

والرابع من الستة أمن عام تطمئن اليه النفوس وتنتشر فيه الهمم ويسكن اليه البريء ويأنس به الضعيف

والخامس خصب تتسع به النفوس ويشترك فيه الغني والفقير فيقل فيهم الحسد وينتفي عنهم التباغض وتكثر المواساة والتواصل لان الخصب يؤول الى الغنى والغنى يورث الامانة والسخاء ان اقترن بعلم يهذب صاحبه ويعرف به مضار المال الذي لم يكتسب من حله ولم يؤد منه حق الله. هكذا عد هذين الاثنين اعني الامن والخصب بانفرادهما من اسباب صلاح المجتمع من تكلم في نظام المجتمع وأنا أرى انهما ثمرة العدل ونتيجته فلا لزوم لعدهما سببين .

والسادس امل فسيح يدعو الانسان الى اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه فلولا ان الاخير ينتفع بما أنشأه الاول حتى يستغني به لافتقر أهل كل عصر الى انشاء ما يحتاجون اليه من منازل السكنى وغيرها من اراضي الحرث واشجار الثمر وذلك لا تتسع له اعمارهم فلذلك منّ الله تعالى على خلقه باتساع الآمال فعمرت به الدنيا وعم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها الى قرن بعد قرن فيتمم الثاني ما ابقاه الاول من عمارتها ويرمم الثالث ما احدثه الثاني من شعثها لتكون أحوالها مدى الاعصار ملتئمة وامورها منتظمة ولو كانت الآمال قصيرة ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى الضروري لوقته ولكانت تنتقل الى من بعده باسوأ حال حتى لا ينمو فيها نبت ولا يمكن فيها لبث فعلى الناس جميعاً ان يتساندوا في نفع بعضهم بعضاً والسعي في استجلاب الخيرات ودفع المضرات كل على مقدار طاقته فالخلق عيال الله واحب خلقه اليه انفعهم لعباده وخير الناس انفعهم للناس . وقد ظن بعض من ران على قلبه الجهل ان الانزواء عن الخلق اسلم لدينه مع كونه قادراً على الاختلاط بهم وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وحسب ذلك يعود عليه بالثواب الجزيل ومن كان كذلك فهو كلٌّ على الهيئة الاجتماعية وعضو أشل فيها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ايظن هذا وامثاله ان عمل الصالحات المأمور به في الكتب السماوية هو عبارة عن الصوم والصلاة فقط كلا بل العمل الصالح اعم من ذلك يبتدىء باماطة الاذى عن الطريق وسقي الماء ولو على الماء ونظارة البساتين ورعي المواشي ويترقى الى فك الاسير واغاثة الملهوف والاعانة بالنفس والمال وكل عمل تعدى نفعه فهو افضل من عمل المرء لنفسه ودليل هذا ماروى عن انس بن مالك رضي الله عنه انه ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقالوا يارسول الله خرج معنا حاجاً فكنا اذا نزلنا منزلاً لم يزل يصلي حتى نرحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله حتى ننزل فقال صلى الله عليه وسلم فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه قالوا كلنا يارسول الله قال كلكم خير منه .

والخلاصة ان كل من عرف شيئاً فيه نفع للهيئة الاجتماعية مادياً او ادبياً وجب عليه استعماله في ذلك بنصح واخلاص ومن لم يفعل فقد خان النوع الانساني بل الدنيا بأسرها لانه انتفع منها بالمأكل والملبس والمسكن ولم يؤد عن ذلك عوضاً .

على ان التوغل في العبادة وترك التعرض للتجارب يورثان البله كما قال الجاحظ فقد كان عامر بن عبد الله بن الزبير من المتوغلين فيها فاتاه يوماً عطاؤه وهو في المسجد فقام الى منزله ونسيه فلما صار الى منزله وذكره بعث رسولاً ليأتيه به فقال له واين نجد المال بعد ان تركته فقال سبحان الله او يأخذ احد ما ليس له . وسرقت مرة نعله فلم يتخذ نعلاً حتى مات وقال اكره ان اتخذ نعلاً فلعل رجلاً يسرقها فيأثم وقال الجاحظ ان الخلفاء والائمة افضل من الرعية وعامة الحكام افضل من المحكوم عليهم ولهم لانهم اقوم بالحقوق وارد على الناس وعلمهم بهذا افضل من عبادة العباد لان نفع هؤلاء لا يعدو قمم رؤسهم ونفع اولئك يخص ويعم والعبادة لاتورث البله الا لمن اكثر الوحدة وترك معاملة الناس ومجالسة اهل المعرفة فمن هناك صاروا بلهاء حتى صار لا يجيء من اعبدهم حاكم ولا امام .

واما مايصلح به حال الانسان وحده فثلاثة اشياء (١) نفس مطيعة تأتمر بالرشد وتنتهي عن الغي (٢) والفة جامعة تتعطف عليها القلوب ويندفع بها المكروه و كفاية من العيش تسكن نفس الانسان اليها ويستقيم اوده بها . فاما الاولى وهي النفس المطيعة فانها اذا اطاعته ملكها واذا عصته ملكته فاهلكته لانها كما قال تعالى (امارة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالسوء) ولسنا الآن بصدد بيان وصول النفس الى تلك الرتبة العلية فانه علم تكفلت ببيانه الشرائع وافرد بالتاليف .

واما الثانية وهي الالفة الجامعة فلان الانسان مقصود بالاذية محسود بالنعمة فاذا لم يكن آلفاً مألوفاً تخطفته ايدي الحاسدين وتحكمت فيه اهواء الاعداء . واذا كان آلفاً مألوفاً انتصر بالالفة على اعاديه وامتنع من حاسديه ولذلك قيل المرء كثير باخيه وقال قيس بن عاصم :

ان القداح اذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش ايّد
عزت فلم تكسر وان هي بُددت فالوهن والتكسير للمتبدد

ولهذا قيل ان الله مع الجماعة او يد الله اي قدرته مع الجماعة ومن كان الله معه فلا يعجزه شيء الم تروا ان جماعة تضامت بالمعاونة فقاومت الجبال الشم بهممها وجعلت البحر براً مع بعد غوره وطوت السنين في ايام معدودة وافهمت من في المشرق كلام من في المغرب فكم بالجماعة من نفق فتح وجدول اسيل وسدّ نصب وطريق جديد مدّ وخط برقي سحب كل ذلك بفضل الجماعة التي دربها العلم فعلمها الجد في خدمة المجتمع الانساني ولو كان علم الشرقيين تاماً لما تركوا غيرهم يسبقهم الى تلك الخدمة الجليلة التي غزرت منافعها الادبية والمادية والاسف كل الاسف على هذه الحال فان مثلنا كرجل خزانته مملوءة بالنقود ولا ينتفع بها ويرى غيره يفتحها ويصرف منها وهو ساكن ساكت واذا كانت الالفة تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضى الحال ذكر اسبابها وهي خمسة (١) الدين (٢) النسب اي القرابة (٣) المصاهرة (٤) المودة (٥) البر . اما الدين وهو الاول من اسباب الالفة فلانه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابر . واما النسب ثانيها فلان تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والالفة ويمنعان من التخاذل والفرقة انفة من استعلاء الاباعد على الاقارب وتوقياً من تسلطهم عليهم وللنسب درجات تتفاوت الحمية فيها فدرجة الابوة اشد عظماً من درجة البنوة والعصبات اعظم انفة وغيرة من ذوي الارحام والتوسع في بيان ذلك يخرجنا عن الايجاز المطلوب . واما المصاهرة ثالثها فلانها مواصلة صدرت عن رغبة واختيار وانعقدت على خير وائتمار فاجتمع فيها اسباب الالفة ومواد المناصرة . واما المؤاخاة بالمودة رابعها فلانها تكسب بصادق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الميل اخلاصاً ومصافاة فيحدث بذلك وفاء ومحاماة وهذا اعلى مراتب الالفة ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اصحابه لتزيد الفتهم ويقوى تضافرهم وتناصرهم وهنا كان يجب ان ننبه على شروط الاخاء وحقوقه لو كان في وقت متسع . واما البر خامسها فلانه يوصل الى القلوب محبة ويثنيها انعطافاً فكم من عدو صار بالاحسان اليه صديقاً ولذلك ندب الله تعالى الى التعاون عليه وقرنه بتقواه فقال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) لان في التقوى رضاء الله تعالى وفي البر رضاء الناس ومن جمع بينهما فقد تمت سعادته وعمت نعمته . ثم ان البر نوعان جود ومعروف فالجود بذل المال في الجهات المحمودة لغير غرض مطلوب والباعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحها واباؤها وحد السخاء بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وان يوصل الى مستحقه بقدر الطاقة . واما قول من قال: الجود بذل الموجود فجهل بحدود الفضائل ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف وجود ولا للتبذير موضع وقد ورد الكتاب بذمهما واذا كان السخاء محدوداً كما ذكرنا فمن وقف على حده سمي كريماً ومن قصر عنه كان بخيلاً .

واما المعروف فنوعان ايضاً قول وعمل اما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول قال عمر بن الخطاب يخاطب احد بنيه : بني ان البر شيء هين، وجه طليق وكلام لين . ويجب ايضاً ان يكون محدوداً كالسخاء فانه ان اسرف فيه كان ملقاً مذموماً وان توسط فيه كان معروفاً وبراً محموداً واما العمل فهو بذل الجاه والاسعاد بالنفس والمال بالمعونة في النائبة وهذا يبعث عليه حب الخير للناس وائثار الصلاح لهم وليس في هذه الامور سرف ولا لغايتها حد .

واما الكفاية وهي آخر القواعد فلأن حاجة الانسان لا يعرى منها بشر واذا عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تدم حياة ولم تستقم له دنيا واذا تعذر عليه شيء منها لحقه من الوهن في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ما تعذر عليه منها لان كل قائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله . ثم لما كانت مادة الكفاية مطلوبة لاحتياج الكل اليها فقدت من غير طلب وعدمت من غير سبب واسباب المحبة مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف اسبابها علة للائتلاف في تحصيلها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها حتى لا يجتمعوا على سبب واحد فلا يأتلفون ويشتركوا في جهة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واحدة فلا يكتفون . ثم هداهم اليها بعقولهم واميالهم حتى لا يتكلفوا الائتلاف في المعايش المختلفة فيعجزوا . ثم ان الله تعالى جلت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين : بمادة و كسب . اما المادة فهي حادثة عن انتقاء اصول نامية بذواتها وهي شيئان : نبت نام وحيوان متناسل واما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف المؤدي الى الحاجة وذلك من وجهين تقلب في تجارة وتصرف في صناعة فصارت اسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب للمعروفة من اربعة اوجه نماء زارعة ونتاج حيوان وربح تجارة و كسب صناعة فمن خرج عنها كان كلا على اربابها

اما الزراعة فهي مادة اهل الحضر وسكان الامصار والاستمداد فيها اعم نفعاً ولذلك ضرب الله تعالى به المثل فقال (مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) وقال صلى الله عليه وسلم : (التمسوا الرزق في خبايا الارض) وقال كسرى للوبذ ماقيمة تاجي هذا فاطرق ساعة ثم قال ماأعرف له قيمة الا ان تكون مطرة في نيسان . واختلف الناس في تفضيل الزرع او الشجر بما لا يتسع الوقت لذكره . والثاني من اسباب الكفاية نتاج الحيوان وهو مادة اهل الفلوات وسكان الخيام لأنهم لما لم تستقر بهم دار افتقروا الى الاموال المنتقلة معهم ومالا ينقطع نماؤه بالظعن والرحلة فاقتنوا ما يستقل في النقلة بنفسه ويستغني عن المألوفة برعيه فهو الحيوان ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على اهل الخيام ايسر لقلة مؤنته وتسهيل الكلفة به وجدواه عليهم اكثر بنسله ورسله الهاماً من الله تعالى لخلقه في تعديل المصالح فيهم وارشاداً لعباده في قسمة المنافع بينهم . واما التجارة فهي فرع لمادتي الزرع والنتاج وهي نوعان تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر والثاني تقلب بالمال في الاسفار والاول قناعة واختصار والثاني اعم جدوى غير انه اعظم خطراً واما الصناعة فقد تتعلق بما مضى من الاسباب الثلاثة وتنقسم الى ثلاثة اقسام : صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين الفكر والعمل . اما صناعة الفكر فتنقسم الى قسمين احدهما ماوقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وهي الامارة والثاني ما ادت الى المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وهذه هي الوظائف التي يقوم بها اولو العلم كالقضاة والاطباء وغيرهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واما صناعة العمل فتنقسم قسمين ايضاً عمل صناعي وعمل بهيمي والعمل الصناعي اعلاها رتبة لانه يحتاج الى معاناة في تعلمه وتصوره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية . والآخر انما هو صناعة كدٍ وآلة ومهنةٍ كذوي صنعة الحمالة واستخراج الحجارة . واما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فتنقسم قسمين ايضاً احدهما ما تكون صناعة الفكر فيه اغلب والعمل تبعاً كالكتابة . والثاني ان تكون صناعة العمل اغلب والفكر تبعاً كالبناء فهذه احوال الخلق التي ركبهم الله تعالى عليها في ارتياد مواردهم ووكلهم الى نظرهم في طلب مكاسبهم وفرق بين هممهم في التماسهم ليكون ذلك سبباً لالفتهم فسبحان من تفرد باطيف حكمته واظهر فطننا بعزائم قدرته هذا واني وان اطلت فقد بقي من متممات هذا البحث شيءٌ كثير ربما اعود اليه اذا عادت لي النوبة في هذا الموقف والسلام عليكم .

سعيد الكرمي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net